وسائلُ إنتاج الدّلالة في ضوء اللّغة الواصفة -مقارباتٌ في التّحليل النّحوي للنّص-

د. عمر عروي
جامعة ابن خلدون – تيارت

ملخص:
تعدُّ الدّلالة من أبرز ما يلتفت إليه في دراسة النص، إذ تعتبر جزءا لا يتجزّأ من الدراسات اللغوية؛ فلا يمكن أن نتصور دراسة الشكل دون المضمون، كما لا يمكن دراسة المضمون دون الشكل، ولمّا كان المعنى هو أهمّ ما يلتفت إليه في ظل العملية التواصلية التبليغية، فلا فائدة بلا معنى، ولا معنى بدون سياق داخلي وخارجي يحيط بدلالة الخطاب، و من اليقين أنه لا دَلالة بلا تركيب؛ لأنّ الألفاظ المفردة لا يمكن أن تُحقّق الوظيفة الأساسية للغة، ألا وهي التعبير عن مُكوّنات الفكر، ولا يكون هذا إلا بترتيب تلك الألفاظ ترتيباً معيناً ضمن تركيبٍ يؤلِّف فيه المتكلّم بين الألفاظ على وفق المعاني النفسية والمعاني النحوية (اللغة الواصفة). من هنا كانت دراستي تبحث في عملية إنتاج الدلالة، من خلال البناء النصي في ظل محاولة استكناه مكنوناته وعلاقاته، وكيفية انبنائه في ضوء اللغة الواصفة (لغة النحو)، والتي تعتبر الحجر الأساس الذي تقوم عليه رحلة المعنى وتشكّل الدلالة.

الكلمات المفتاحية: الدلالة – اللغة – التحليل – النحو.

Abstract:
The meaning is one of the most attention to the study of the text,it's considered as integral part of linguistic studies.We can not imagine a language study of structures without content, and neither can we study the content without structures, and since it is so important to pay attention to in the process language communication reporting, there is no benefits away from meaning nor meaning without an internal and external context that surrounds the process of speech.
However , it is certain that there is no meaning without a structure; because individual words can not achieve the basic function of language, namely to convey the components of thought ،that is done by ordering certain linguistic

elements in a structure which the speaker tries to utter according to his competences.

This study is an attempt to looking in the process of producing meaning through textual constructions .We have tried , through this work,to deduce the components of texts , its meanings and relations as well as how they are constructed in light of the language of grammar, the latter is seen as the corner stone on which linguistic meanings are based..

key words: Significance – language - Analysis – Grammar

-ما النّص ؟

النصّ في الدّرس العربي القديم من المفاهيم ذات الدلالات المتعدّدة؛ فما أوردته المعجمات العربية تحت مادّة (ن ص ص) تدور في فلك المعنى اللغويّ للنصّ، من دون الحديث عن المعنى الاصطلاحيّ للكلمة، إلاّ إشارات بسيطة كالتي نراها عند ابن منظور (ت711هـ) في لسان العرب؛ إذ يقول: «قول الفقهاء: نصّ القرآن: ونصّ السنة، أي ما يدلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام»[1].

والنصّ عند الفراهيديّ (ت175هـ) «هو الرفع والظهور يقول "نصصت الحديث إلى فلان نصّا، أي رفعته،...، والمنصّة التي تقعد عليها العروس... والماشطة تنصّ العروس أي تقعدها على المنصّة، وهي تنصّ، أي تقعد عليها أو تشرف لترى من بين النساء»[2].

يتبيّن من هذا أنّ معنى النصّ هو الرفع والارتفاع؛ فرفع النصّ يُوجب إعادته إلى أصله عن طريق سلسلة رواته، والمنصّة مكان مرتفع تجلس عليها العروس لترى، ومنه أيضا «نصّت الظبية جيدها رفعته »[3] .

ومن معاني النصّ أيضا هو منتهى الشيء وبلوغ أقصاه، ومنه حثّ الناقة لاستخراج أقصى سيرها «ونصصت ناقتي؛ رفعتها في السير... ونصّ كلّ شيء: منتهاه، وفي الحديث (إذا بلغ النساء نصّ الحقاق فالعصبة أولى؛ أي إذا بلغت غاية الصّغر إلى أن تدخل في الكبر فالعصبة أولى بها من الأم، يريد بذلك الإدراك والغاية »[4]، ومنه أيضا استقصاء مسألة الرجل حتى يستخرج ما عنده « يقال نصّ ما عنده أي استقصاه »[5]، فالاستقصاء هنا التتبّع لبلوغ الغاية، ومنه « ما روي عن كعب أنّه قال: يقول الجبار: احذروني فإنّي لا أناصّ عبدا إلاّ عذّبته؛ أي لا استقصي عليه إلاّ عذّبته»[6].

النصّ هو الكائن الحي الذي ينبني على علاقات داخليّة تنتظم فيها التراكيب الإسنادية وغير الإسنادية، وهذه العلاقات هي التماسك والترابط، وعلاقات خارجيةّ يحكمها السياق، وبهذا

يكون النصّ والسياق يتمّم كلّ منهما الآخر، ويفترض مسبقا كلّ منهما الآخر، وتعدّ النصوص« مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعديلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة.»[7]

والنصُّ يمكن أن يكون منطوقا أو مكتوبا، شعرا كان أو نثرا، أو حوارا أو مونولوجا، أو أيَّ شيء آخر ...، فالنصُّ هنا وحدة لغوية قيد الاستعمال، لبناتها اللفظ والعبارة والجملة، ولا يحدَّد بحجمه، وقد يُوصَف النصُّ بأنَّه جملة كبرى؛ أي أنَّه وحدة نحويَّة أكبر من الجملة لكنَّه مرتبط بها، وبالتأليف بين الجمل ينتج تكوين وحدات أكبر من وحدات أصغر، لكن هذا القول في رأي المؤلفين مجانب للصواب، إذ أنَّ النصّ برأيهم ليس تركيبا يشبه الجملة غير أنَّه أكبر، بل هو شيء مختلف عن الجملة من حيث النوع، لذا فهما ينظران إلى النصّ على أنَّه وحدة دلاليَّة؛ لا وحدة شكل بل وحدة معنى، ومن ثمَّ فهو مرتبط بالعبارة أو بالجملة بتحقق المعنى لا بالشكل أو بالحجم، فالنصُّ وإن كان يتكوَّن من الجمل، إلا أنَّه يختلف عنها من حيث النوع، فمجموع الدلالات الجزئيَّة التي قد تعطيها كلُّ جملة ضمن سلسلة الجمل المكوّنة للنصّ تتوحد في وحدة دلاليَّة شاملة يتحقَّقُ بها النصّ.

الكثير من النصّوص لا تفهم عن طريق الاعتماد على النظام الذي تُرتبُ فيه الجمل فحسب، بل يعتمد على المقام الذي قِيلت فيه، فالمستمع أو القارئ حين يحُدّد- بوعي أو بلا وعي - مرتبة العيّنة اللغويةً، يحتاج إلى نوعين من القرائن؛ داخليَّة وخارجيَّة، فهو لا يستعمل المفاتيح اللغويّةَ فحسب، بل يستعمل كذلك المفاتيح المقاميَّة، فهو يستجيب لغويًا إلى ملامح خاصة تربط المقطع ككلّ، وهي قوالب الترابط المستقلَّة عن البنية، التي يشار إليها بالاتّساق، كما يؤخَذُ بنظر الاعتبار مقاميًا كلّ ما يعرف عن البيئة: ما الذي يجري؟ أو أيُّ دور تؤديه اللغة؟ ومن هم المنهمكون في الأمر؟

إن النّص نسج تتخلّله جملة من الوحدات الدالة والمفاهيم القائمة، وهو لا يقع في المستوى نفسه الذي تقع فيه الجملة، كما أنه لا يقع موقعها من حيث المفهوم، وعلى هذا الأساس فإنّ النّص يجب أن يتميز عن الفِقْرة باعتبارها وحدة نمطية من عدة جمل، لذا، يمكن عدُّها علامة من علامات الترقيم، كما أنّه ذو محتوى دلالي متجانس متكامل، ويمتاز بالوضوح.

فالنص إذن، منعكس لثقافة المجتمع بكافة شبكاته المعقدة عبر التاريخ والجغرافيا والعلاقات بين الأفراد، أي أنه ذاكرة ملخصة للنظام المعرفي للمجتمع، فالنص أيّا كان هو مجموعة من العلاقات اللّغوية التي تخدم فكرة أو مجموعة أفكار أو مفاهيم قابلة للتفسير والشرح والتأويل، مما يمهد لتطويع النص لقراءات جديدة أو تأكيد قراءة ما.

-تجليات الدّلالة في النص:

تتجلّى الدلالة على المستوى النّصي من خلال رحلة المعنى بدءا بعتبات النص الأولى، مرورا باللفظ اللغوي، ثم الرموز، ثم التيمات، فالتركيب، وصولا إلى المعنى العام والدلالة التي يحملها النص... والغاية من دراسة دلالة النص هو إدراك المعنى كما أراده مؤلف النص، أو على الأقل مقاربته بشكل أو بآخر، أو إنتاج نص دلالته توافق ما تصوّره المتكلم في ذهنه، تراكيبه تحمل معناه، ثم إن أهم ما يوصف به نشاط التأويل الدلالي للنصّ أنه نشاط معقد ومتعدد ينمو في اتجاهات كثيرة، في ظل البحث عن معاني النص الغائبة، واستقبال المعاني الحاضرة، ومن هنا كان التعدد القرائي للنص حسب سلوكات القارئ واستعداداته الذهنية، وما شحن به النص من حمولات دلالية وانزياحات أسلوبية..، وبهذا يتضح مفهوم إنتاج الدلالة من خلال المتكلم فهو يصبو إلى إنتاج نص كامل الدلالة على ما تصوره في ذهنه، وعلى ما يريد توصيله إلى المتلقي، ومن خلال القارئ المتلقي فإنتاج الدلالة بالنسبة إليه هو فهم المقصود، وإدراك المعنى العام، وتصور الدلالة التي انبنى عليها النص المنطوق أو المكتوب.

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا ما مدى اعتبار المستوى النحوي في دلالة النص؟ وما هي وسائل إنتاج الدلالة؟

-وسائل إنتاج الدلالة:

-اللغة:

اللغة هي تلك الملكة التي تعنى بالتواصل والتعايش والتبليغ، «واللغة نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية، يتم بواسطتها التعارف بين أفراد المجتمع، تخضع هذه الأصوات للوصف من حيث المخارج أو الحركات التي يقوم بها جهاز النطق، ومن حيث الصفات والظواهر الصوتية المصاحبة لهذه الظواهر النطقية» [8].

تعدّ النّظريةُ اللّغويّةُ نسقاً مكوّناً من المبادئ والقواعدِ النّحويّةِ التي تربطُ الأصواتَ بالمعاني أي تصلُ بينَ الصّورةِ الصّوتيّة والصّورة الدّلاليّةِ أو المنطقيّة، والمتكلّمُ حينَ يتكلّمُ يصدرُ عن معرفتِه اللّغويّةِ الفطريّةِ، و ينطلقُ لإنتاجِ التراكيبِ من تمثيليْنِ: تمثيلٍ صوتيّ يعكسُ طريقةَ أداءِ الجملةِ صوتيّاً، وتمثيلٍ دلاليّ يعكسُ المضمونَ الدّلاليّ الذي تُفيدُه الجملةُ، والإشكالُ هو معرفةُ الطّريقةِ التي تتمّ بِها دلالةُ الأصواتِ عَلى المَعاني، وطبيعةِ هذه الدّلالة وأشكالِها وضوابِطِها، وذلك يشغل بتحليل المعاني المباشرة وغير المباشرة، والصورة المتصلة بالأنظمة الخارجة عن حدود اللغة، والتي ترتبط بعلوم النفس والاجتماع وتمارس وظيفتها على درجات في الأدب شعرا ونثرا.

-التركيب:

أشار الدكتور مهدي المخزومي أن أول من أشار إلى مصطلح التركيب هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) إذ « رأى أن التركيب ظاهرة لغوية تمخضت عنها الاستعمالات»[9]، وهو أيضا « ما كان مؤلفا من كلمتين تلازمتا في الاستعمال» [10]، والتركيب هو أهمّ وسائل إنتاج الدَلالة، فلا دَلالة بلا تركيب؛ لأنّ الألفاظ المفردة لا يمكن أن تُحقّق الوظيفة الأساسية للغة، ألا وهي التعبير عن مُكوّنات الفكر، ولا يكون هذا إلا بترتيب تلك الألفاظ ترتيباً معيناً في ضمن تركيبٍ يؤلِّف فيه المتكلّم بين الألفاظ على وفق المعاني، وحَسبما تقتضيه الدّلالة يقول الجرجاني: « فليس الغَرضُ بنَظم الكَلِم أن توالتْ ألفاظها في النُطق، بل أن تناسقَتْ دَلالتها وتلاقت مَعانيها على الوجه الذي اقتضاه العَقل»[11].

-التصور:

ونقصد به تصور المعنى المراد تبليغه في الذهن، فقبل التكلم بأي جملة أو بأي خطاب على مستوى النطق أو الكتابة يجب أن نتصوّر في الذهن المعنى، ويوصف المعنى المتصور في الذهن بكماله وتمامه، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتصور معنى في أذهاننا ناقصا وغير تام، «والمعنى هو غاية الغاية بين من يتكلم اللغة ومن يسمعها، وبين من يقوم بالكتابة ومن يقرأ ما يكتب» [12]

-الألفاظ:

اللفظ جزء من التركيب، ودراسة التركيب النحوي في اللغة تستدعي دراسة أجزاء التركيب (**المفردات**)، أو الفصائل اللغوية، ثم بنية التركيب كلها« لأنّ التركيب لا يكون إلا من اجتماع المفردات، والمفردات لا تكون إلا من اجتماع الأصوات»[13]، واللغة العربية لغة معربة، أي أنها تغير في صور مفرداتها ومكانها في أثناء التركيب للدلالة على المعاني النحوية التي يقوم بها[14]، واللفظ هو لبنة في بناء النظم، فلا نتصور نصّا بدون ألفاظ، والتفاضل في اللفظ من خلال الحسن والقبح، والسهولة والغموض، والفصاحة والغرابة وغيرها.. فقد يكون لفظ أخف من غيره وأرشق، وقد يكون أجمل إيقاعاً وأحلى جرساً، وقد يكون أبعد من الحوشية والغرابة، وأدنى إلى الأنس والسلاسة، وقد يكون أبعد عن الابتذال والسوقية، وأقرب إلى الجزالة والرصانة، بل الفصاحة والجلالة، والألفاظ العربية مبنية على ثمانية وعشرين حرفا، وهي أقصى طوق اللّسان، وألفاظ جميع الأمم قاصرة عن ثمانية وعشرين[15].

-المتكلّم والمتلقي:

إذا كان المبدع هو الذي ينجز النص وينظم تراكيبه؛ فإن المتلقي هو الذي يوظف خبرته اللغوية وغير اللغوية مستكشفاً العلاقات بين الدوال ومدلولاتها، ويتوصل إلى مقاصد

المتكلم، ويصير للفهم والتأويل شأنهما البالغ حينها فـ« إن العبارة/النص...هي نفسها موضع الفهم أو التأويل لدى المتلقي فالمتكلم يقوم بعملية تشفير للمعنى الذي يقصده، والمتلقي يقوم بعملية فك لهذا التشفير، ولكي تكون هاتان العمليتان على مستوى واحد أو لكي يتحقق التراسل بينهما، وتتحقَّق بذلك وظيفة الكلام، لا بد أن تحمل العبارة نفسها معايير تشفيرها، وأن يكون المتلقي نفسه على دراية بهذه المعايير»[16]. ولأجله يشرك عبد القاهر المتلقي في إكمال مفهوم النظم، وهو متلقٍ خاص توازي خبرته بالنص خبرة صاحبه"الناظم"، فيكون مبدعاً في القراءة كما كان المؤلف مبدعاً في النظم، وتكون القراءة عملاً إبداعياً يماثل في ترامیه وتغوره ترامي النص وتغوره.

فالمتكلم « يمثل من النظرية البلاغية منزلة مرموقة، فهو طرف أساسي في عملية الكلام وعنصر فعال في تحديد خصائص النص إذ على عاتقه تقع كلفة إخراجه على سمت يستجيب لمقضيات الوظيفة والإبانة والمقام»[17]، كما يعتبر المخاطب (المستمع/المتلقي/القارئ) قطبا آخر من أقطاب العملية التواصلية، فمراعاته، ومراعاة مقامه، وجلب انتباهه، مما يؤثر في تركيب الجمل وحشر مكوناتها وفق ترتيب معين، كما أن عدم اعتبار المخاطب قد يؤدي إلى خلق حالة فيه معاكسة تماما لما كان المتكلم يرومه.

على الرغم من دور القارئ الفعال في إنتاج دلالة النص، إلا أن العملية الإبداعية تتكون من كاتب ونص وقارئ وبتفاعلهم معاً دون فصل عنصر عن الآخر؛ فالقارئ أو السامع هو الغاية الكامنة في نية المؤلف حين يشرع في الكتابة، أو التحدث للحصول على الأثر المُبتغى من خلال تصور ردة فعل الفرد القارئ في ملكاته الإدراكية أمام السبل المختلفة التي يقترحها النص المقروء أو المسموع، باعتبار أن القارئ يحمل معه تجربته الخاصة، وثقافته الفردية، وقيم عصره، وهمومه وينظر إلى النص من خلالها فيندمج في عالم النص.

-السياق:

هو الوعاء أو المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية سواء أكانت كلمة أو جملة في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية، «ويرى **"هاليداي"** أن السياق هو النص الآخر أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية»[18]، وهو على شقين:

أولا السياق اللغوي وهو ما يسبق الكلمة وما يليها من كلمات أخرى، **وثانيا السياق غير اللغوي** أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام، وقال السيوطي:« وعليه (المُفسِّر) بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ومراعاة التأليف والغرض الذي سيق له الكلام»[19]، يقول فيرث: «المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية»[20]، وتعدّ نظرية السياق على النحو الذي حدده **فيرث** من أفضل المناهج لدراسة المعنى لاهتمامها

بالعناصر اللغوية والاجتماعية والابتعاد عن كثير من الأفكار البعيدة عن الواقع اللغوي، يقول استيفن أولمان: «إن نظرية السياق إذا طبقت بحكمة تمثل حجر الأساس في علم المعنى»[21]، ويقول أرباب هذه النظرية الخطيرة في الميدان اللغوي أن اللفظ لا يستقيم معناه إلا إذا وضع مجاورا للفظ آخر على المستوى الأفقي، حيث لا يمكن وصف الوحدات اللغوية بمعزل عن ما يجاورها من وحدات لغوية أخرى على المستوى التركيبي.

فالوظيفة النصية تختص ببناء الحدث اللغوي (المقال) وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ولقوانين النحو ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها.[22]

ولهذا أصبح لزاما على الكاتب أو القارئ عندما يتعلق الأمر بالنصوص المدونة التي فقدت عنصر المقام الاجتماعي فخفي علينا من ظروف قولها أشياء كثيرة أن يعيد تكوين هذا المقام بتصور ما يمكن تصوره من أحداث بغية الوصول إلى أكبر قدر ممكن من المعاني.

فالمعنى الدلالي لا يتضح بمجرد النظر إلى معنى "المقال" وعليه فالمقام يعتبر عاملا مهما في تحديد محتوى القضية وكلما كان وصف المقام أكثر تفصيلا كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحا[23]

إنّ النظر النحوي يعمل على وضع الكلام في سياقه، من ظروف خطاب وأحوال متخاطبين؛ باعتبار السياق قرينة كبيرة من قرائن المعنى ورفع اللّبس، ولا يحصره في علاقات تركيبية مجردة تحكمها " قوانين العاملية ".. وأن نحو اللسان يحرص على ربط اللفظ بالمعنى، والمقال بالمقام والمتكلم والمخاطب[24].

-المستوى النحوي (اللغة الواصفة) في دلالة النص:

إنّ محاولة إنجاز النّصَ وإزاحته من دائرة التفكير إلى دائرة المشافهة والكتابة لا يعنيان أبداً اكتماله على المستوى الفنيّ وعلى مستوى رحلته التي أنشئ من أجلها؛ أي على المستوى الوظيفي الّذي قُدّر له، أي اكتماله على المستوى الدلالي، بل يحتاج إلى اكتماله على المستوى النحوي التركيبي، ومن هنا يمكن القول إن الدلالة التامة تستلزم مستوى نحوي صحيح، وهذا ما عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بـ (معاني النحو) ثم بعد ذلك تبدأ رّحلة النص بشتّى أجناسه، سواء أكان شعراً أم نثراً، لتتمظهر على مستوى التفسير والتأويل تبعا لمحددات القراءة، وهذه المرحلة ربّما تكون الأصعب، أو على الأقلّ أصعب من مرحلة الإنجاز، وفيها تظهر القدرات الإبداعيّة للعمل الأدبيّ، وتظهر أيضاً القدرات الإبداعيّة للمتلقي، وتظهر المستويات النحوية للخطاب، وعندها تتبّدى إمكانيات عمليات القراءة، وتتبلور وفق ظروفها الاجتماعيّة والثقافيّة والإجرائية التي لا علاقة لها بالأدب في كثير من الأحيان، ولكنّها تكون فاعلة في توجيه القراءة وجهة ذات طبيعة معينة، تحدّد من خلالها قيمة النص

التي تتأرجح بين تعدد القراءات للنص في تأويل دلالاته المنطوية تحت عباراته، ويكون القارئ وحده مكتشفها على المستوى الفكريّ وتجعله يوظّف على المستوى التخيّلي جزءاً من ذاته، و بهذا تتموقع إشكالية النص والتي تأتي من طبيعة اللغة ذاتها، التي تعمل على توظيف الآلية اللغوية بعيدا عن معناها التداولي البسيط، نحو ما يعرف باستكشاف جماليات اللغة عبر المجاز، والمجاز عموما هو عملية تطويع لغوي ضمن إطار يتجاوز المعجم وصولاً إلى التسييق بما يضفي على اللفظ رونقاً يخرجه من حيّز الحقيقة إلى رحابة المجاز التي تتيح للمفردة الواحدة أن تؤدي وظيفة تعبيرية جمالية في آن معاً.

وعليه فإن القارئ يتكئ على بنية النص، أي على نسيج علاقاته الداخلية، والتي تحكمها القواعد النحوية كي يخلق السياق العام الضروري لفهم النص المقروء، وبهذا يتمظهر المستوى النحوي من خلال ترابط وتمازج عدة عناصر منها الصوت والرمز واللفظ والتصور والمتكلم والقارئ لإنتاج الدلالة.

و لمّا كان النحو العربي(اللغة الواصفة) بهذا الشمول، إذ يضم الصوت والصرف والتركيب والدّلالة... ولا يقتصر على الناحية الشكلية، والاهتمام بأواخر الكلم أو ما يعرف بظاهرة الإعراب فقط، كان لزاما على من يريد الوصول إلى المعنى التسلح بآليات توجيه دلالة التركيب الذي أمامه، واستنطاق كل ما من شأنه أن يعين على فهم النص أو توجيه دلالته، ومن تلك الآليات والعناصر منها ما هو في التركيب ذاته، وهذا هو شأن ما يسمى بالقرائن اللفظية والمعنوية ،ويصدق عليهما اصطلاح (القرائن المقالية) لأن هذين النوعين من القرائن يؤخذان من القول الملفوظ أو المكتوب، ومنها ما يتعلق بالمحيط أو الجو العام الذي سيق فيه التركيب، ويسمى هذا بالقرائن الحالية أو سياق الحال[25](25)، ويُدرس فيه تأليف وتركيب الجمل، وطُرق تكوينها، وخصائصها الدلالية والجمالية، بمعنى أنه يبحث في بناء الجملة سواء أكانت فعلية أو اسمية أو شبة جملة، والدّلالة التركيبية وهو ما يسمى بالمعاني النحوية يرجع إلى الصعوبات الكامنة في تحديد الدّلالة التركيبية للجملة. «فإن الجملة قد تصاغ بصيغة معينة وتحتمل عدة معان مختلفة بعضها بطريق التضمن وبعضها بطريق الالتزام وبعضها بطريق الدّلالة المباشرة وبعضها بطريق الإيحاء أو الرمز إلى آخره» [26]

تُستمدّ الدّلالة على المستوى النحوي (اللغة الواصفة) من إقامة علاقات نحويّة بين الألفاظ في الجمل على وفق قوانين اللغة[27]؛ ذلك أنّ اللغة ليست إلاّ « مجموعة من القوانين الوضعيّة سواء أكانت على مستوى المفردات (الألفاظ) أم على مستوى التركيب (الجملة)»[28]. ولكلّ من هذه المفردات وظيفة نحويّة تتحدّد بانضمامها إلى غيرها من الألفاظ في نظام تركيبيّ معيّن، وقد بيّن النحويّون القدماء ذلك في دراساتهم التحليليّة للألفاظ في الجمل والتراكيب، فقالوا: إنّ« الحروف تدخل على الأفعال فتنقلها نحو قولك:

ذهب، ومضى، فتخبرهما عمّا سلف، فإن اتّصلت هذه الأفعال بحروف الجزاء، نقلتها إلى ما لم يقع، نحو: إن جئتني أكرمتك»[29]، فضلاً عن الإعراب الّذي تنبّهوا إلى أثره الأساسيّ في تحديد الوظيفة النحويّة في الأصل.

ويتمظهر المستوى النحوي أيضا عند البلاغيين من خلال دراساتهم القيّمة لمعاني الكلام، من تقديم وتأخير، وذكر وحذف وفصل ووصل، وأسلوبي الخبر والإنشاء بنوعيه: الطلبي وغير الطلبيّ، الّتي أطلق عليها علم المعاني، ولا ريب فإن علم المعاني يحتكم إلى قواعد النحو وأصوله ومعانيه.

وقد أدرك المفسّرون قيمة الدّلالة المستوفاة من المستوى النحوي فأولوها اهتمامهم فاعتمدوها أساساً في فهمهم النصوص القرآنيّة وتوجيهها معنويّاً، كما اعتمدها الأصوليّون لبيان الأحكام القرآنيّة الشرعيّة؛ ذلك لارتباط علم الأصول بفهم المعاني النحويّة، و« بتوجيه الترتيب اللفظيّ وبيان دلالته الّتي تختلف من تركيب إلى آخر»[30] كالفاعليّة، والمفعوليّة، والإضافة، والتعجّب، والاستفهام، والنفي، وما شابه ذلك؛ إذ إنّ وظيفة الأصوليّ هنا إدراك هذه المعاني النحويّة المختلفة بحسب اختلاف التراكيب[31]، ويتمظهر هذا المستوى جليا في باب التقديم والتأخير؛ نحو قوله تعالى: [**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ**][32] «ولما كان الإنسان ربما حصل له اللوم بسبب قومه كان (ص) في هذا المقام بمعرض أن يخاف عاقبة ذلك ويقول: فماذا أصنع بهم؟ فقال تعالى معلما أنه ليس عليه بأس من تكذيبهم [**قُلْ لَّسْتُ**] وقدم الجار والمجرور للاهتمام به معبرا بالأداة الدالة على القهر والغلبة فقال:[**عليكم بوكيل**] أي حفيظ ورقيب لأقهركم على الرد عما أنتم فيه»[33].

كما نجد هذا الاهتمام عند عبد القاهر الجرجاني، الذي ربَط المعنى بالنحو وعُني بالعَلاقات التركيبية بين الكلمات داخل الجملة والوحدة وبين الجمل في النصّ الواحد[34]، والمزية عنده في المعاني فالألفاظ لا تتفاضل مفردةً إلا حينما تأتلف وتتركب في جمل، فالكلمة المفردة قبل «دخولها في التأليف وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجباً وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة»[35]، أي أنَّ للألفاظ وظيفة معينة عليها أن تؤديها، وإلا فلا قيمة لها في ذاتها، على أنَّ الألفاظ تتحدّد قيمتها في ضوء الصورة المركبة، والمعنى هو الدّلالة الكلية المستمدة من الوحدة الناشئة من كليهما، أي من (اللفظ والمعنى).

خاتمة:

إن قضية إنتاج الدلالة (سواء أكان على مستوى المتكلم (المتحدث أو الكاتب) أو على مستوى المتلقي (القارئ أو السامع) تقتضي الإلمام بجمع من العناصر التي تتضافر مجتمعة لتكوين وسائل ضرورية لا يمكن الاستغناء عن إحداها بأي حال من الأحوال، ومن هذه الوسائل ماهو داخلي كاللغة نفسها والألفاظ، ومنها ماهو خارجي كالمتكلم والمتلقي والسياق، وهذا كله يعتمد على تحقيق معاني النحو وقوانينه الموضوعية من خلال معرفة وجوه اللغة العربية وأساليبها، وطرق المجاز ومقاصده خاصة، المتعلقة بالمنحى الدلالي الإضافي على المعنى الحقيقي، أو أدائه لوظائف أخرى غير دلالته النصية كالتخصيص، والتعميم، فضلاً عن المجاز، ومعرفة الاشتقاق وفروعه وأصوله...

هوامش البحث:

---

[1] . لسان العرب، ابن منظور (جمال الدين محمّد بن مكرم)؛ دار صادر؛ بيروت، لبنان، د ط؛ 1968؛ مادة (ن ص ص)؛ ج7، ص 98 .

[2] . كتاب العين، الفراهيديّ (الخليل بن أحمد)؛ تح: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1984، مادة (ن ص ص)؛ ج7، ص 87/86.

[3] . لسان العرب، مادة (ن ص ص)؛ ج7، ص 97.

[4] . العين، مادة (ن ص ص)؛ ج7، ص 87/86.

[5] . العين، مادة (ن ص ص)؛ ج7، ص 87.

[6] . تهذيب اللغة، الأزهريّ (ابو منصور محمّد بن أحمد)، تح: محمّد عوض مرعب وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2001/1، ج12، ص 83.

[7] ينظر: الكفويّ (أبو البقاء أيوب ابن موسى)؛ الكليّات؛ مؤسسة الرسالة ناشرون؛ يروت، لبنان، ط1998/2، ص 908.

[8]. في التحليل اللغوي، خليل أحمد عمايرة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1987/1، ص 27.

[9]. في النحو العربي نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط1986/2، ص191.

[10]. المرجع نفسه، ص191.

[11] . دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 245.

[12] . في التحليل اللغوي، خليل عمايرة، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط1987/1، ص 13

[13]. المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ط3، ج1، ص 309.

[14]. ينظر: المرجع نفسه، ص 309 .

15. ينظر: تأويل مشكل القرآن 14 فما بعدها.

[16]. عز الدين إسماعيل، قراء ة في معنى المعنى عند عبد القاهر، مجلة الفصول، المجلد7، العددان الثالث والرابع، القاهرة،1987م،ص44.

[17] . التفكير البلاغي عند العرب ص 248.

[18]. دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، مطابع جامعة أم القرى، ط1424/1ه، ص 50. ويمكن القول أن السياق قد عرفه لغويونا في التراث العربي من نحاة وبلاغيين وأصوليين، غير أنه عند البلاغيين والأصوليين أوضح حيث جعلوه مرجعية مهمة في فهم المعنى المقصود ووسيلة جليلة للوصول إلى دلالة التراكيب، ولقد لفت انتباه الشافعي 204هـ إلى معنى السياق اللغوي حين عقد بابا في الرسالة أسماه (باب الصنف يبين سياقه معناه). والبلاغيون بوجه خاص يستخدمون مصطلحي الحال والمقام للدلالة على ما يسمى بسياق الموقف أي على القرائن الخارجية المتعلقة بالمتكلم أو المخاطب أو الحالة العامة للكلام باعتبار المكانة الاجتماعية لطرفي التخاطب، وإجمالا إذا كان هذا بعض شأن النحاة من السياق بنوعيه وإدراكهم له وتعويلهم عليه فإنه لابد من الإشارة إلى أن التعويل على السياق في تحليل الجملة عند النحاة العرب لم يكن منصبا على الجمل التامة أو الكاملة وإنما يتجه إلى الجمل الناقصة، ولم يكن اللغويون معنيين إلا بما يقدمه في الكشف عن معنى المتعدد والمحتمل من الألفاظ المفردة. وإذا كان السياق بنوعيه يؤدي إلى القدرة على تقدير الناقص وتحديد المتعدد، فإن ذلك يفسر أن إشارات النحاة للسياق أو القرينة الدالة أو قرائن الأحوال لم تظهر إلا في باب الحذف.

[19]. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي 911هـ تح: مركز التحقيقات القرآنية، ص 1223/1222.

[20]. دراسات في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، ص 375.

[21]. دور الكلمة في اللغة، استيفن أولمان، ترجمة: كمال بشر، دار غري للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط12، ص 59.

[22] دراسات الإحصائية للأسلوب، سعد مصلوح ص 118 (عالم الفكر).

[23] اللغة العربية معناها ومبناها ص:346. الأصول، تمام حسان ص 334. أثرالنحاة في البحث البلاغي ص 193. الدراسات الإحصائية، سعد مصلوح ص 217 (عالم الفكر)، نظرية اللغة والجمال، تامر سلوم ص 123

[24] من قضايا النظرية اللغوية العربية ، د.عبد الرحمان بودرع ، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية رقم 267 ، 2007 ، جامعة الكويت ، ص100-101 .

[25]. ينظر: القرائن المعنوية في النحو العربي (رسالة دكتوراه في النحو من جامعة الجزائر 1994)، عبد الجبار توامة، ص 26. في حقيقة الأمر لا يقتصر فهم المعنى واستنطاق الدلالة وتوجيهها في تركيب ما على هاته القرائن المقالية والحالية، بل ربما نجد هذه الآليات كلها متوفرة في التركيب نفسه غير أن السامع أو القارئ للتركيب أو النص لا يفهم المقصود من هذا الكلام وذلك راجع لضعف استعداداته التعليمية و النفسية وحتى حضوره الذهني وتركيزه العام، فكل هذا له من الأهمية الجليلة في مساعدة على فهم المعنى وتوضيح المقصود، ولعل هذا أصلا يعود على مستلزمات الخطاب اللغوي، ومقتضيات الحال ومراعاة حال المخاطب واستعداداته اللغوية والتعليمية فالمخاطب الذي لا يدرك أو لا يعرف فهم القرائن أو توظيفها أو معرفتها لا يمكن له أن يصل إلى الدلالة المنشودة من الخطاب، وربما هذا ما يتجلى لنا بوضوح في ميدان الألغاز اللغوية وما يترتب عنها من استيعاب كامل لما يحيط بالعملية اللغوية من اصطلاح وتركيب وقواعد نحوية ومعجم الألفاظ الذي يتوقف عليه في الكثير من الأحايين فهم الجملة بل فهم النص كله.

[26]. النحو والدّلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، محمد حماسة عبد اللطيف، دار الشروق، القاهرة، ط2000/1، ص 20.

[27]. ينظر: الدّلالة اللغويّة عند العرب، عبد الكريم مجاهد، دار الضياء، عمّان، الأردن، 1985، ص 194 .

[28]. مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، نصر أبو زيد، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الأوّل، 1984، ص14

[29]. شرح المفصّل، ابن يعيش، ج1، ص19 .

[30]. أثر الدّلالة النحويّة واللغويّة في استنباط الأحكام، عبد القادر السعديّ، مطبعة الخلود، بغداد، ط1/1986، ص39.

[31]. ينظر: البحث النحويّ عند الأصوليّين مصطفى جمال الدين، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980، ص31.

[32]. الأنعام، 66.

[33] :نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن البقاعي (885هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة مصر، 1984، ج7، ص 145.

[34]. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص55.

[35]. المصدر نفسه، ص44